الطفولة المهملة

يمكن أن نجد تشابها بين وفيات الأطفال فى السنة الأولى من أعمارهم و بين إهمال الطفولة بعد ذلك أيام الصبا . فان وفيات الأطفال كثيرة جدا فى بلادنا ومرجعها الى الجهل والفاقة . لأن الأم المصرية على ما تتصف به من حنان ورعاية لطفلها تجهل المبادئ الأولية للصحة . وهى لذلك لا تعرف الخطر العظيم من الذبابة التى قد تقف على شفتى طفلها وتنقل إليه جراثيم نزلة معوية تقضى عليه . ثم أن الفاقة التى تشتد وطأتها فى بعض البيئات تحول بينها و بين ما تحب من نظافة . وفى مثل هذه البيئات نجد أن الطفل الذى نجا من الموت حين كانت أجنحته ترفرف عليه طيلة مدة الطفولة قد استحال بعد ذلك — للأسباب نفسها — الى صبى متشرد .

ذلك أن أبو يه لجهل والفاقة يتركانه هملا يعاشر صبيانا أكبر منه سنا فيتعلم منهم أسوأ العادات و يأخذ عنهم شر النزعات . ثم هم يعجزان عن تعليمه أو تسليته بالسعويات المفيدة التى لا تقوده الى مهاوى الأخلاق . وحين نذكر "التشرد" يجب أن يتجه ذهننا نحو المدينة . أما الريف فلا يزال سليما . لأن الصبى الذى ينشأ فيه يجد مشاغل كثيرة فى الأعمال التى يرسمها أبواه . وهو حين يبلغ العاشرة أو الخامسة عشر يحسن تبعات مختلفة تهيئ منه رجلا مفيدا للمجتمع . والقدوة السيئة قليلة فى الريف .

ولكن الحال ليست كذلك فى المدن . لأن الطفل الذى يهمله أبواه والذى تقضى الفاقة عليهما بتركه فى الزقاق أو الشارع لا يلبث أن يتعرف إلى كثير من عشراء السوء فيشاركهم فى التعلق بالترام وفى السرقات الصغيرة وفى الأخذ بلغتهم وميزان أخلاقهم . وهو ميزان تشيل فيه كفة الفضيلة وترجح كفة الرذيلة . ومن مثل هذا الصبى يتكون المجرم فى المستقبل .

ويجب أن ننظر خلال جرائم الأطفال إلى أسرة سيئة . فإن الأبوين اللذين تضطرهما الفاقة إلى كسب العيش خارج البيت يهملان الطفل الذى يتخبط فى هذه الدنيا وهو لا يزال غضا فينشأ نشأة سيئة لأنه يحس منذ الطفولة أنه لا يجد من المجتمع المحيط به أى مساعدة أو بر أو تعاون . ثم قد تكون هذه الأسرة مفككة قد انفصلت الأم من الأب بطلاق أو بخصومة . فالطفل يرى شقاقا بين أبو يه يثير فى نفسه أسوأ الاعتقادات عن معنى العدالة . ثم هو قد يعيش مع أبناء أبيه من أم أخرى أو مع أبناء أمه من أب آخر . وفى مثل هذه الظروف لا يجد الحب والرعاية اللذين يرشدان خطواته فى بحر الحياة الحافل بالأمواج . ولذلك كثيرا ما يهجر هذا الطفل بيته و ينشد السعادة الموهومة فى فوضى الشارع .

وخير أنواع العلاج هو دائما وعلى الدوام الوقاية . فإذا شئنا أن نتقى التشرد فى الأطفال فان الوسيلة إلى ذلك يجب أن تقودنا إلى إصلاح البيئة المنزلية . وذلك بأن نعمد إلى المساكن فنجعلها لائقة للسكنى . ولا نعنى المساكن الصحية فقط مع قيمتها الكبرى بل نعنى المساكن المدنية . فان الطفل يجب أن يجد فى البيت مفروشات وسويات حتى لا يبعثه السأم على تركه والتجوال فى الشارع ولعل القارئ يستغرب عند ما نقول إن فى الولايات المتحدة الأمريكية جمعيات تختص بنوع عجيب من البر وهو أن الأعضاء يعمدون إلى منازل الزنوج فيزخرفونها ويزينونها بالألوان الزاهية البراقة لكى يزيلوا عنها الكمد والقتامة حتى يجد فيها السكان ما يبهجهم . وما أحرانا بأن نفكر فى مثل هذا البر لمساكن فقرائنا فى المدن .

ولكن الجو المنزلى لا يتحسن ويغرى الطفل بالبقاء إلا إذا كان الجو العائلى حسنا أيضا . وهذا يعنى فى النهاية تعميم المحبة والرعاية بين أعضاء البيت وخاصة بين الزوجين . والطبقات الفقيرة عندنا تسرف فى الطلاق . وإحصاءات الطلاق تزيد فى المدن على ما هى عليه فى الريف . ولهذا أثره السيئ فى تنشئة الأطفال . إذ قل أن نجد صبيا فى الاصلاحية دون أن يكون خلفه تاريخ طويل من شقاق عائلى أو طلاق أو انفصال بين أبويه .

والعائلة هى المجتمع الصغير الذى يعيش فيه الطفل . وهو يقيس الأخلاق بعد ذلك ويعد موازين الفضيلة والرذيلة طبق لما رأى ومارس فى البيت . فان كان البيت قذرا حافلا بالشقاق تتناثر فيه ألفاظ السباب وأحيانا تتحرك فيه الأيدى بالبطش فان مما يتجاوز حدود المنطق أن ننتظر طفلا حسنا من مثل هذا المجتمع .

فأولى وسائل الوقاية من الطفولة المهملة المشردة هو المنزل الحسن أى العائلة الحسنة . ثم يلى ذلك العناية بتعليم الطفل فى مدرسة حسنة . وقد عمت المدارس الإلزامية فى المدن ومنعت بعض الشر الذى كان ينتج عن تجوال الصبيان فى الشوارع .

ولكن هناك حالات قد مضى فيها طور الوقاية . لأن الطفل للاسباب العديدة التى ذكرنا يكون قد استقر على التشرد . فما هى وسائل علاجه ؟

إن العلاج المأثور هو الاصلاحية . وفى مصر ثلاث اصلاحيات اثنتان منها للصبيان وواحدة للبنات . والأوليان تسيران على نظام أقرب إلى السجن منه إلى المدرسة لأن الباب يغلق فى ساعة معينة وللصبيان شكة معينة لا تختلف كثيرا من الشكة التى يتخذها المساجين . أما إصلاحية البنات فأقرب إلى الملجأ أو المدرسة منها إلى السجن . ولكن الاصلاحيات الثلاث تتبع مصلحة السجون . وقد عمدت هذه الاصلاحيات إلى تتبع خريجيها بعد تركهم لها . وللأسف لم تجد أن النتيجة مشجعة . ومحكمة الأحداث هى التى تحكم بارسال الصبى إلى الإصلاحية ولكن الازدحام الحاصر وقلة الأماكن فيها يجعل هذه الأحكام أحيانا عقيمة

لا يمكن تنفيذها . ويجوز للأب أن يطلب إحالة ابنه إلى الاصلاحية . وقد أنشئ مصنع لاستخدام صبيان الإصلاحيات ولكنه أيضا لا يفى الحاجة .

وعندنا محاكم للأحداث . وقضاة هذه المحاكم لا يمتازون بتربية أو تعليم خاص فى كلية الحقوق . ولكن نظرهم لجرائم الصبيان يتغير ويتعدل بممارسة هؤلاء الصبيان . ونظن أن من الخير للصبيان وللقضاة ألا يتغير القاضى وينقل إلى محكمة أخرى . وذلك لكى يتوفر على درس أحوال الصبيان وتفهم بواعث الجريمة عندهم . فإن الحكم بإرسال الصبى إلى الإصلاحية لأنه ارتكب بعض الجرائم أو لأن أباه يطلب ذلك ليس على الدوام أفضل الأحكام. بل نظن أن القاضى الذى يقضى فى محاكم الأحداث يجب أن يعرف جميع المؤسسات التى تخدم الصبيان من إصلاحيات إلى أندية إلى ملاجئ إلى معسكرات . كما أنه يجب أن يكون على دراية كبيرة بأثر البيئة العائلية فى الصبى . ومن هنا يتضح لنا أن القاضى فى محاكم الأحداث هو مرب ومرشد اجتماعى أكثر مما هو قاض . كما نظن أن الاصلاحيات يجب أن تقطع صلتها بمصلحة السجون وتستتبع لوزارة المعارف حتى يشعر القائمون عليها أنهم يعلمون ويربون وأن خاطر العقوبة بعيد عن أذهانهم . وتحسن كلية الحقوق أيضا إذا هى أنشأت قسما خاصا لجرائم الصبيان .

وإذا تركنا الاصلاحيات فاننا نجد الملاجئ . وقد هبت الحكومة والأمة معا إلى إنشاء الملاجئ للصبيان عقب حركة نادت بها الصحف بشأن ملاجئ المبشرين . ولا تكاد تخلو مدينة كبيرة من ملجأ للصبيان يؤويهم ويعلمهم ويكسوهم . وهم فى الأغلب يتامى . ونظن أن الحكومة تحسن إذا هى أخرجت تقريرا سنويا عن هذه الملاجئ ومقدار الرقى الذى تحققه فى خدمة الصبيان مع نشر الصور الفتوغرافية التى توضح المبنى وسائر الأحوال الصحية التى يعيش فيها اللاجئون من الصبيان .

وليس شك فى أن المدارس الإلزامية والإصلاحيات والملاجئ قد عالجت إلى حد ما الطفولة المهملة فى المدن ووقت الصبيان من التشرد . وإن كان السائر فى شوارع القاهرة لا يزال يجد مئات من الصبيان المشردين الذين نحار فى تعليل حالتهم هذه ونتساءل عن التربية التى أبيتهم .

ومن الإصلاحات الجديدة التى أخذنا بها الأندية للصبيان المحرومين . وفى حى العباسية بالقاهرة نادوملجأ يسمى "مؤسسة الزقاف الملكى" يؤوى الصبيان فى ذلك الحى ويعلمهم ويسليهم . وبه الآن تسعون صبيا . وهو نظام جديد ربما تأخذ به الحكومة وتستبدله بالإصلاحيات . والصبيان فى هذه المؤسسة يجدون العناية فى معالجتهم من الأمراض الجسمية ويثقفون ثقافة ذهنية وجسمية ويعاملون المعاملة التى تشعرهم بالكرامة والعطف .

وهناك مجهودات شعبية لا علاقة للحكومة بها . منها محلة الرواد فى السيدة زينب . وقد أنشأها طلبة جامعة فؤاد الأول بمعاونة الأساتذة . وفى هذه المحلة يجد الصبيان والأمهات تعليما وتسلية .

وكذلك أنشأت جمعية الشبان المسيحية نادى كوبرى الليمون للصبيان المحرومين . وهو ناد فقط . يقصد اليه الصبيان حيث يجدون الألعاب الرياضية وأحيانا تعرض عليهم قصة سينمائية وتعاونهم الإدارة فى التثقيف وتساعدهم على التوجيه الحرفى . ويحسن الأبرار إذا أرصدوا أموالهم على إنشاء مثل هذه الأندية والملاجئ .

الأندية والمدارس والملاجىء كلها مفيدة لوقاية الصبيان ومعالجتهم ولكن أنفع منها هو العائلة الحسنة التى يجد فيها الصبى أبوين يسودهما الوفاق والرخاء . لأن الخصومة أو الطلاق تشتتان الأبوين ويفصلان بينهما أو يملآن البيت بالشجار والنفار . والصبى فى هذه الظروف يجد القدوة السيئة وقد يهرب من البيت ويبدأ تسكعه الذى قد يلازمه مدى حياته مع فترات الإصلاحية أو السجن .

وعند الألمان مثل يقول : " الزوجان لا يتشاجران ولكنه الفقر يتشاجر" والمعنى أن قلة الرخاء وتوالى الضيق يجعل الأبوين أو الزوجين يتشاجران . والصبى الذى يعيش فى هذه البيئة يخاف ويحاول الهرب وقد يؤدى به هذا الى التسكع .

فاصلاح العائلة بالوفاق بين الزوجين والإقلال من الطلاق هما أول الأسباب لصلاح الصبيان .

وصف الليل

وصف الصبى الليل بقوله :

رب ليل صهرته مفكرا فى امتداده
كلما زدت رعيه زادنى من سواده
فتبينت أنه تائه فى رقاده
أو تفانت نجومه فبدا فى حداده